الساكن والمتحرك في علم اللغة العربية

د. جعفر دك الباب
الأستاذ المساعد في كلية الآداب
جامعة دمشق

أشرت في مقالة «الصوامت والصوائت في العربية»[1] إلى أن مصطلح (الحرف) في علم العربية يشير إلى شكل الكتابة وإلى الصوت. وعرضت فيها رأي الأستاذ غابوتشان القائل بأن الحركات تعتبر عناصر صائتة تدخل في تكوين الحرف، وليست صوائت تضاف إلى الحرف.

إن رأي الأستاذ غابوتشان يعني أن الكتابة العربية هي كتابة مقطعية تسجل المقاطع الصوتية فقط عن طريق تخصيص علامة (حرف) لكل مقطع. اننا لا نوافق على هذا الرأي، ونرى أن الكتابة العربية ليست مقطعية. ولكن هل يعني ذلك أن الكتابة العربية أبجدية؟

أولا: هل الكتابة العربية مقطعية أم أبجدية؟

للإجابة عن هذا السؤال يجب الرجوع إلى تاريخ نشأة الكتابة بشكل عام وتاريخ الكتابة العربية بشكل خاص[2].

بدأ الاغريق بتحليل أصوات اللغة، وبلغوا في تحليلهم الصوتي مرحلة ما يسمى «التقطيع الثاني». ونشير بالمناسبة إلى أنه يقصد بالتقطيع الأول تقطيع الكلمة (اللفظة) إلى المقاطع الصوتية التي تتألف منها. أما التقطيع الثاني فيقصد به تمييز الوحدات الصوتية الأولية التي يتألف منها المقطع الصوتي.

إذا اعتبرنا أن الأبجدية (الحقيقية) هي تلك التي تشتمل على إشارات متميزة (حروف) تفيد الأصوات الصامتة والصائتة على حد سواء، يتوجب علينا أن نقرّ بأن الأبجدية الفينيقية (والعربية أيضا) ليست كذلك لأنها تدون الأصوات الصامتة فقط. ولابد حينئذ أن ننسب للاغريق المرحلة الأخيرة من اختراع البشرية للأبجدية (الحقيقية) حين عمدوا إلى تدوين إشارات تفيد أصواتا صامتة وإشارات أخرى تفيد أصواتا صائتة. لقد تم التحول إلى مرحلة تدوين جميع الوحدات الصوتية الأولية

(1) المنشورة في مجلة «اللسان العربي» المجلد التاسع عشر الجزء الأول لعام 1982.

(2) يمكن الرجوع مثلا إلى المصادر التالية:
- «تاريخ علم اللغة» تأليف جورج مونين – ترجمة د. بدر الدين القاسم – اصدار وزارة التعليم العالي العربية السورية – دمشق 1972.
- «دراسات لغوية في ضوء الماركسية» نقلها إلى العربية د. ميشال عاصي – دار ابن خلدون بيروت 1979.
- «قصة الحضارة» تأليف ويل ديورانت – الجزء الثاني من المجلد الأول (الشرق الأدنى) – ترجمة محمد زيدان – لجنة التأليف والترجمة والنشر في جامعة الدول العربية – الطبعة الثالثة 1961.
- «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام» د. جواد علي – الجزء الثامن – الفصل الحادي والعشرون بعد المئة (الخط العربي).
- «تاريخ العرب (مطول)» بقلم الدكاترة فيليب حتي، ادورد جرجي، جبرائيل جبور – الجزء الأول – دار الكشاف – الطبعة الرابعة 1965.

على يد الاغريق ، لأن طبيعة لغتهم أرشدتهم إلى ضرورة استكمال الأبجدية الفينيقية ، فاستخلصوا أسلوبهم الأبجدي في الكتابة من أسلوب الكتابة الفينيقية .

عزا الاغريق اختراع الكتابة إلى الفينيقيين ولم ينسبوا لأنفسهم ذلك العمل . هذا وتجدر الإشارة إلى أن الأداة الأبجدية الفينيقية انتقلت — حين استعملها الإغريق — من بنية لغوية ذات خصائص معينة إلى بنية لغوية تتمتع بخصائص مغايرة تماما . وكان لابد ، والحال كذلك ، لتلك الأداة الأبجدية الفينيقية من أن تتكيف مع مقتضيات بنية اللغة الإغريقية المتميزة جذريا عن بنية الفينيقية ومثيلاتها من اللغات .

والفارق الجوهري بين البنيتين — برأينا — هو أن البنية الفينيقية (والعربية أيضا) تتميز بأن أصل الكلمات يتحدد فيها على أساس المقاطع الصوتية التي يتألف الأصل منها ، دون الاكتراث بوصف كل مقطع منها (قصير أم طويل ، مفتوح أم مغلق) ، ودون الاكتراث بتحديد نوع الصوت الصائت الذي يشتمل عليه المقطع (فتحة أو كسرة أو ضمة — ألف مدة ، ياء مدة ، واو مدة) . ولما كان كل مقطع صوتي يشتمل بالضرورة على صوت صائت (مهما كان وصف المقطع أو نوع ذلك الصائت)، في حين أنه قد يشتمل على أكثر من صوت صامت (تبعا لوصف المقطع : مفتوح أم مغلق) ، كان لابد في الكتابة من تدوين إشارات تفيد جميع الأصوات الصامتة التي تدخل في المقاطع الصوتية المكوّنة لأصل الكلمات . في حين لم يكن ثمة ما يوجب تدوين إشارات تفيد الأصوات الصائتة لأن تحديد وجودها ووصفها ونوعها يمكن تخمينه بسهولة استنادا إلى الخصائص البنيوية للغة التي تعكسها قواعد الصرف .

أما البنية الاغريقية فتتميز بأن أصل الكلمات فيها لا يمكن تحديده فقط على أساس المقاطع الصوتية التي يتألف الأصل منها ، بل يتوجب لتحديده بيان وصف كل مقطع منها وتحديد نوع الصوت الصائت الذي يشتمل عليه المقطع . لذا كان لابد في الكتابة الاغريقية من تدوين إشارات تفيد جميع الأصوات الصامتة ، وإشارات أخرى تفيد جميع الأصوات الصائتة التي تدخل في المقاطع الصوتية المكوّنة لأصل الكلمات .

فالكتابة الفينيقية (والعربية أيضا) لا تقوم إذا على تدوين المقاطع الصوتية عن طريق تخصيص إشارة (حرف) لكل مقطع ، بل تقوم على تدوين الأصوات الصامتة في كل مقطع . وكان كل حرف في الأبجدية الفينيقية يفيد صوتا صامتا . ولما جرَى اقتباس الأبجدية الفينيقية لكتابة الاغريقية ، تم تخصيص بعضها للأصوات الصامتة وبعضها الآخر للأصوات الصائتة .

ويمكن تلخيص المبادئ الأساسية لنظام الكتابة العربية بما يلي :

1) يقوم نظام الكتابة العربية على تدوين إشارات (حروف) تشير إلى الأصوات الصامتة التي يتألف أصل الكلمات منها . ولا يوجب تدوين إشارات تمثل الأصوات الصائتة القصيرة (الحركات) التي تتصل بتلك الأصوات الصامتة ، أو تدوين إشارة تفيد سكون الصوت الصامت (أي عدم حركته) .

2) بعد وضع علامات الشكل في الكتابة العربية ، صار بالامكان بيان نوع حركة الصوت الصامت أو بيان عدم حركته بواسطة الإشارات المعروفة (الخاصة بالحركات والسكون) التي تستخدم في كتب المبتدئين بتعلم القراءة والكتابة العربية أو حين يخشى اللبس .

3) يوجب نظام الكتابة العربية تدوين إشارات (حروف) تمثل الأصوات الصائتة غير القصيرة (المدات) التي تتصل بالأصوات الصامتة ، ولو كانت تلك المدات في أصل الكلمة (قال ، نام ، باع ، سعَى ، دنا ، قضَى) . ويلاحظ أن حرف الألف (ا) يختص بالإشارة إلى الألف المدة التي هي صوت صائت غير قصير . أما حرف الياء (ي) فيشير إل الياء المدة التي هي صوت صائت غير قصير وإلى الياء غير المدة التي هي صوت صامت . وكذلك حرف الواو (و) يشير إلى الواو المدة التي هي صوت صائت غير قصير وإلى الواو غير المدة التي هي صوت صامت .

4) يمكن أن توضع علامات الشكل (إشارات الحركات أو السكون) فوق جميع الحروف التي تمثل الأصوات الصامتة بما فيها الواو والياء.

5) لا يمكن أن توضع علامات الشكل (اشارات الحركات أو السكون) فوق جميع الحروف التي تمثل الأصوات الصائتة غير القصيرة (المدات)، بل توضع قبل كل حرف مد الحركة التي تناسبه فقط (الفتحة قبل الألف المدة، والكسرة قبل الياء المدة والضمة قبل الواو المدة).

يظهر من استعراض هذه المبادئ **أن الكتابة العربية ليست مقطعية، كما أنها في الوقت نفسه ليست أبجدية تماما. إنها نمط خاص من الكتابة** يدوّن جميع الأصوات الصامتة عن طريق تخصيص إشارة (حرف) لكل صوت صامت من ناحية، ومن ناحية أخرى يدوّن الاصوات الصائتة غير القصيرة (المدات) عن طريق تخصيص إشارة (حرف) للألف المدة وعن طريق اشتراك الياء المدة والواو المدة في الحرفين (ي) و(و) الموضوعين أصلا للياء الصامتة والواو الصامتة. أما الأصوات الصائتة القصيرة (الحركات)، فقد خصصت لكل منها اشارة. كما خصصت اشارة السكون المعروفة لتفيد عدم حركة الصوت الصامت. ولا توضع علامات الشكل (اشارات الحركات أو السكون) عادة إلا حين خشية اللبس.

وفي ضوء ذلك نفهم لماذا اتفق علماء العربية على أن عدد الحروف في العربية تسعة وعشرون حرفا هي جميع حروف الابجدية مضافا إليها (لا) التي تمثل الألف المدة (واللام حاملة لها)، ونفهم لماذا بحثوا بشكل منفصل في الألف المدة ولم يبحثوا في الياء المدة والياء غير المدة، أو في الواو المدة والواو غير المدة.

ثانيا: الساكن والمتحرك في علم اللغة العربية:

بما أن علماء العربية استخدموا مصطلح (الحرف) للدلالة على شكل الكتابة وللاشارة إلى الصوت. فقد اضطروا إلى عدم دراسة الأصوات (الحروف) من حيث تقسيمها إلى صامتة وصائتة، لذا درسوها من حيث مخارجها ومن حيث تقسيمها إلى ساكنة ومتحركة. ولا يعني ذلك أن علماء العربية جهلوا الفرق بين الصامت والصائت. وقد بيّنت في مقالة «الدراسات الصوتية في التراث اللغوي العربي»[3] أن علماء العربية لم يخلطوا بين الصامت والصائت وفرقوا بينهما بدقة.

يرى علم اللسان الحديث أن الأصوات الصامتة وحدها يمكن أن توصف بأنها ساكنة أو متحركة. أما الأصوات الصائتة (سواء أكانت قصيرة أي حركات أم غير قصيرة أي مدات) فلا يمكن – بحكم طبيعتها – وصفها بأنها ساكنة أو متحركة. ويبرز بهذا الصدد الاشكال التالي: **توصف المدات الثلاث (الألف والياء والواو) في علم العربية بأنها سواكن. فهل يعني ذلك أن جميع علماء العربية أخطأوا؟ أم أنهم – حين استعملوا مصطلح (ساكن) لدى وصف حروف المد – كانوا يقصدون به معنى آخر؟!**

أجبت عن هذا السؤال في مقالة «الدراسات الصوتية وأكتفي هنا بايراد **النتيجة** التي توصلت إليها والتي تؤكد أن **وصف حروف المد في علوم العربية بأنها سواكن يقصد به الإشارة إلى أن اشباع لفظ حركة المتحرك يشبه السكون من حيث أن الاشباع كالسكون لا يؤدي إلى ظهور مقطع صوتي جديد، بل يؤدي فقط إلى تغيير وصف المقطع.** ويعني ذلك أن علماء العربية، حين وصفوا المدات الثلاث بأنها سواكن، قصدوا الاشارة إلى أنها صائتة غير قصيرة لأنها تظهر نتيجة اشباع الحركة المناسبة لكل منها. كما يعني أنهم حين قالوا إن المدات تتحرك، قصدوا الاشارة إلى ما يقابلها من أصوات صامتة. ويؤكد ذلك أنهم اضطروا إلى القول إن الألف المدة إذا تحركت قلبت همزة. والسبب في ذلك أن الواو المتحركة هي صوت صامت، وكذلك الياء المتحركة هي صوت صامت، بينما لاتوجد ألف متحركة وأقرب الصوامت المتحركة إليها هي الهمزة. ولعل من المفيد أن نذكّر بأن قواعد الشكل في العربية تقضي بوضع علامة الحركة المناسبة للمدة قبل

(3) المنشورة في مجلة «المعرفة» بدمشق – العدد 234 / آب 1981

المدات الثلاث وتحظر وضع علامة السكون فوق المدات . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا تكون الياء والواو حرفي (صوتي) مد إذا لم يتسبقا بحركة مناسبة لكل منهما ، بل تكونان صوتين صامتين كبقية الأصوات الصامتة . ويمكن بالتالي أن نكتب فوقهما علامات الشكل (اشارات الحركات أو السكون) كما في (بيْت ، قَوْم ، يد ، ولدان ...) .

لقد وصف ابن جني ميزان العروض بأنه «عيار الحس وحاكم القسمة والوضع»[4] ولعل من المفيد هنا الرجوع إلى ميزان العروض لبيان أن وصف حروف المد في علوم العربية بأنها سواكن يقصد به الاشارة إلى أن اشباع لفظ حركة المتحرك يشبه السكون من حيث أن الاشباع كالسكون لا يؤدي إلى ظهور مقطع صوتي جديد ، بل يؤدي فقط إلى تغيير وصف المقطع .

وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي علم العروض العربي انطلاقا من خصائص النظام الصوتي للعربية التي تتجلّى في أن الصوت الصامت المتحرك يمثل مقطعا صوتيا ثنائيا ، وتتجلّى أيضا في أن الحركة ليس لها وجود منفصل عن صوت صامت يلفظ قبلها ويتصل بها . فعمد الخليل لدَى تحديد أوزان البحور إلى التميز بين المتحرك (الذي يمثل مقطعا صوتيا) وغير المتحرك (الذي لا يمثل مقطعا صوتيا) . فاستطاع بذلك أن يحدد الأسباب والأوتاد والفواصل التي تتركب منها الأوزان والتي أجملوها في قولهم (لم أر على ظهر جبلن سمكتن) .

وسنعمد فيما يلي إلى تحليل الأسباب والأوتاد والفواصل إلى المقاطع الصوتية التي تتألف منها :

1) السبب الخفيف (ـ 0) لم : قصير مغلق (قصير مفتوح + صامت ساكن) .
2) السبب الثقيل (ـ / ـ) أر : قصير مفتوح + قصير مفتوح .
3) الوتد المجموع (ـ / ـ 0) على : قصير مفتوح + طويل مفتوح (قصير مفتوح + اشباع)
4) الوتد المفروق (ـ 0 / ـ) ظهر : قصير مغلق (قصير مفتوح + صامت ساكن) + قصير مفتوح .
5) الفاصلة الصغرَى (ـ / ـ / ـ 0) جبلن : قصير مفتوح + قصير مفتوح + قصير مغلق (قصير مفتوح + صامت ساكن)
6) الفاصلة الكبرَى (ـ / ـ / ـ / ـ 0) سمكتن : قصير مفتوح + قصير مفتوح + قصير مفتوح + قصير مغلق (قصير مفتوح + صامت ساكن) .

وبعد تحليل المقاطع الصوتية التي تتألف منها الأسباب والأوتاد والفواصل ، يتبين لنا أن الصوت الصامت غير المتحرك (الساكن) لا يمكن لفظه إلا في نهاية مقطع صوتي قصير مفتوح (أي بعد متحرك) ويؤدي إلى تغيير وصف المقطع الصوتي باغلاقه بعد أن كان مفتوحا ، مما يسمح بتمييزه في اللفظ عن بقية المقاطع القصيرة المفتوحة (أي عن بقية المتحركات) . كما أن اشباع الحركات (الفتحة والكسرة والضمة) ـ الذي ينجم عنه لفظ تلك الحركات ألفا وياء وواوا مدات ـ يؤدي كذلك إلى تغيير وصف المقطع الصوتي القصير المفتوح بجعله طويلا ، مما يسمح بتمييزه في اللفظ عن بقية المقاطع القصيرة المفتوحة (أي عن بقية المتحركات) .

وهكذا يتبين أن لفظ صوت صامت ساكنا بعد متحرك وكذلك اشباع لفظ حركة المتحرك يؤديان إلى تمييز هذين المتحركين عن بقية المتحركات . وينجم عن ذلك اختلاف في التفعيلات التي تتميز بها الأوزان . لذا يبدو لفظ الصوت الصامت ساكنا بعد متحرك مماثلا لاشباع لفظ حركة المتحرك في تفعيلات العروض من حيث أن كلا منهما يمثل توقفا (سكونا) بعد متحرك . فيشار إليهما بالعلامة (0) ، في حين يشار إلى المتحرك بالعلامة (ـ) .

لقد حددنا ـ في هذه المقالة وفي مقالة «الصوامت والصوائت في العربية» ـ بعض خصائص النظام الصوتي للعربية ، وبيّنا كيف انعكست في نظام الكتابة العربية . وسنعمد في المقالة التالية بعنوان «نظرة جديدة إلى المعجم العربي» إلى بيان كيف انعكست خصائص نظام أصوات العربية وكتابتها في نظام المعجم العربي .

(4) «الخصائص» حققه محمد علي النجار ، دار الهدَى ـ بيروت ـ جـ 1 / ص 88